د.بكاي عبد المالك

أستاذ محاضر "أ"

جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

البريد الالكتروني:bekaiabdelmalek@yahoo.fr

الهجرة في العصر الوسيط المفهوم الدوافع والآثار.

يعتبر الإنسان في حالة هجرة منذ القدم وعلى مر الأزمان و إلى يومنا هذا وسنحاول هنا البحث عن مدلول الهجرة والدوافع الكامنة ورائها والآثار التي خلفتها في العصر الوسيط، وسنركز على بلاد المغرب على اعتبار أن الهجرة المشرقية سيتصدى للحديث عنها الكثير من الأستاذة في هذا المحفل العلمي.

تعريف الهجرة ومدلولاتها:

الهِجرة في اللغة كما وردت في معجم المعاني الجامع هي مصدر الفعل هاجَرَ، وتُجمع على هِجرات، وهي خروج الفرد من أرض وانتقاله إلى أرض أخرى بهدف الحصول على الأمان والرزق، أو هي انتقال المرء من بلدٍ إلى بلدٍ آخر ليس مواطناً فيه ليعيش فيه بصفةٍ دائمةٍ[[1]](#footnote-1)، وقد ورد عن ابن فارس أنّ الهاء، والجيم، والراء أصلان، أحدهما يدل على شدّ شيءٍ أو ربطه، أمّا الآخر فيدل على القَطع أو القطيعة، وهي عكس الوَصْل، كما ورد عن ابن منظور أن الهجرة لغةً هي الخروج من أرضٍ لأرض[[2]](#footnote-2)، ويمكن القول إنّ الهجرة في اللغة لم تقتصر على معنىً واحد، وإنما تشتمل على عدّة معانٍ؛ فالهجرة بمعنى المفارقة والقطع، وهي عكس الوَصْل، وتعني مفارقة الشخص لغيره باللسان أو القلب أو البدن، وقد كان أصل الهجرة عند العرب في خروج البدو من البادية مُتّجهين نحو المُدن بحثاً عن الرزق[[3]](#footnote-3).

اصطلاحا:

للهجرة في الاصطلاح مضامين مختلفة وفقاً للعلم الذي تُدرَّس فيه، حيث إنّ لها مفهوماً في علم السكان، ومفهوماً آخر في الشرع؛ فالهجرة في علم السكان أو علم الديموغرافيا بشكلٍ عام تعني الحركة السكانية التي ينتقل فيها الأفراد أو الجماعات من مكان الإقامة الأصلي أو من المكان الذي يعيشون فيه، ويتّجهون للعيش في مكانٍ آخر لفترة زمنية معينة، وقد يجتازون أثناء انتقالهم حدوداً إداريةً ودوليةً بين المنطقتين، ويكون الباعث في هذه الحركة السكانية الانتقالية إمّا البحث عن الرزق، الذي يتجلى في الأسباب الاقتصاديّة، وإمّا لأسبابٍ سياسية، أو علمية، أو أمنية [[4]](#footnote-4).

الهجرة شرعا: فقد عرفت عدة تعريفات نذكر منها

\* القسم الأول: هجرة الإنسان لما حرم الله عليه، معناه أن يهجر الإنسان ما حرم الله عليه، وهذه الهجرة فرض عين على كل مسلم، وقد صح في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه" [[5]](#footnote-5)، فالمهاجر هو من هجر ما نهى الله عنه هذه الهجرة هي القسم الأول وهي واجبة على كل أحد[[6]](#footnote-6) .

\* القسم الثاني: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، كالهجرة من مكة إلى المدينة، وهذه الهجرة كانت واجبة عند بداية إقامة دولة الإسلام، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمره الله بالهجرة إلى المدينة فهاجر إليه المسلمون ليقيموا معه دولة الإسلام ويشاركوا معه في الجهاد في سبيل الله، فلما فتحت مكة أصبحت دار إسلام فقال: "لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا"[[7]](#footnote-7)، وهذا العهد الذي أخذ علينا النبي صلى الله عليه وسلم لابد من مدارستنا له ومراجعتنا له في أنفسنا، فإنه قال: "لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد" هذا العهد الذي بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ علينا العهد بالجهاد، "ونية" أي نية الجهاد في حال العجز أو في حال عدم إقامة الجهاد، أن ننوي الجهاد في سبيل الله "وإذا استنفرتم فانفروا" هذا الأمر الثالث الذي أخذ به الرسول العهد علينا صلى الله عليه وسلم إذا طلب منا النفير لإعلاء كلمة الله أن ننفر، فإذن هذه ثلاثة أمور جعلها النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة من مكة، وعندما أسلم أهل مكة أرادوا أن يهاجروا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مضت الهجرة لأهلها" أي الهجرة المفضلة التي بيَّن الله منزلة أهلها في قوله: {للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً}[[8]](#footnote-8)، وقال فيهم: {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه}، تلك الهجرة مضت لأهلها فإنما هي ما كان قبل الفتح، أما بعد الفتح فلا هجرة من تلك الدار المفتوحة لأنها دار إسلام، وهذه الهجرة باقية في حق كل من أسلم في دار الحرب أن يهاجر إلى دار الإسلام إن وجد إلى ذلك سبيلاً[[9]](#footnote-9).

\* القسم الثالث من أنواع الهجرة: الهجرة من مكان ظهرت فيه الذنوب، ولم يظهر فيه إنكار لها، فكل مكان غلبت عليه السيئات ولم يستطع الإنسان إنكارها ولم يجد من يعينه على إنكارها فإنه تجب عليه الهجرة عن ذلك المكان، ومحل هذا إن لم يجد من يساعده على إنكار المنكر، فإن وجد من يساعده لم تجب عليه الهجرة، فإنما الهجرة عندما يظهر الفساد والمنكر، ولا يجد الإنسان أعواناً كما قال التتائي رحمه الله: "إذا شاع في أرض فساد ومنكر وليس بها ناهٍ مطاعٌ وآمرٌ فهذا الحال حينئذ تجب على الإنسان الهجرة من تلك الأرض"[[10]](#footnote-10).

\* القسم الرابع: هو هجرة الإنسان لصاحب المعصية في وقت عصيانه، فإن الله تعالى يقول: {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين}[[11]](#footnote-11)، وقال تعالى: {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره}[[12]](#footnote-12).

هذه إذا الأقسام الأربعة هي الهجرة الواجبة. بقيت الهجرة الجائزة، وهي القسم الخامس: وهي في حق من ظلم، فإن من ظلمه ظالم من الذين يخالطهم من الناس يحق له أن يهجره ثلاث كمن ظلمه أخٌ له وكان ذلك الظلم مما لا يستطيع رفعه، فله الحق أن يهجره ثلاث، وقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام"، أما ما سوى ذلك من الهجرة فلا خير فيه.

دوافع الهجرة:

هناك عدة دوافع للهجرة كالدافع الديني والعلمي والدافع الاقتصادي والدافع الاجتماعي والدافع السياسي

وسنحاول هنا اعطاء أمثلة عن كل دافع بعد الحديث عن أسباب المسوغة للهجرة.

1-الدافع السياسي:

كان لغياب الأمن سببا من أسباب الهجرة فلوضع السياسي المتدهور حتم البحث عن مكان أكثر أمننا، كون النفس البشرية تميل إلى البحث الأمن والسلم و يمكن أن يدخل هذا كلية من الكليات الإسلامية الخمس حفظ النفس، ومن الأمثلة على الهجرات السياسية والتي كانت دوافعها سياسية نذكر على سبيل المثال هجرة أهل القلعة منها إلى بجاية ولم تقتصر الهجرة على العامة بل امتدت إلى ترك الحماديين لعاصمة دولتهم في القلعة و انتقالهم إلى بجاية واعتبارها عاصمة جديدة لدولتهم، والسبب راجع إلى سيطرة القبائل الأثبج على المغرب الأوسط، فاضطر الناصر بن علناس بحثا عن الأمن إلى نقل عاصمة دولته إلى بجاية ، ولتحبيذ الناس على سكن بجاية أسقط عن ساكنيها الخراج[[13]](#footnote-13).

2- الدافع الاقتصادي :

اعتبر الدافع الاقتصادي سببا مهما للهجرة، فكانت مثلا تنقلات التجار بين الأقاليم المختلفة بحثا عن الكسب من أهم أنواع الهجرات والأمثلة متعددة على ذلك ويصف ابن خلدون ذلك بقوله ً وكذلك نقل السلـــــــــــــــع من البلد البعيد المســـــــــــــــــــــــــــافة ، أو شدة الخطر في الطرقـات يكون اكثر فـائدة للتجـار وأعظم أربـاحـا واكفل بحوالة الأسواق لأن السلع حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكـانـها أو شدة الغرر في طريقهـا فيقل حـاملوهـا ، ويعز وجودهـا ، وإذا قلت وعزّت غلت أثـمانهـا"[[14]](#footnote-14) وقد ساعد الهجرة الاقتصادية انتشار الفنادق والتي تعني الحــــــــــــي الكـــــــــــبير أو مــــــــــــــدينة صغــــــــــــــــيرة ، وتــــــــــــــكون فيـــــــــــــــهـا أبنــــــــــــية مــــــــــــــن عــــــــــــدة طـــــــــــــوابق تخصــــــــــــص الطــــــوابق العلــــــــــــــيـا للســـــــــــــــكن في حـــــــــــــــين تكــــــــــــــــون الطــــــــــــــــــوابق الأرضــــــــــــــــية مـــــــــــــخـازن وحـــــــــــــوانيت[[15]](#footnote-15)، كما كانت الهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب بدافع اقتصادي بعد القطيعة المذهبية التي كانت بين الزيريين والفاطميين، فقد أجاز اليازوري وزير المستنصر للهلالية عبور النيل بعد ترغيبهم في خيرات بلاد المغرب، كون مصر كانت تعاني ضائقة اقتصادية بسبب الجفاف وانخفاض منسوب النيل.

-الدافع الثقافي:

كانت الهجرة بالنسبة لطلب العلم ضرورة والتي هي أصله وقد كان الرجل ينفق فيها مالا كثيرا وقد لا يحصل إلا على النزر القليل لأن عنايته على قدر مشقته [[16]](#footnote-16)، وهنا ونحن نتكلم عن رحلة طلب العلم نستطيع أن نتكلم عن سبب من أسباب انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب حيث أن ومن أسباب الانتشار رحلة المغاربة إلى الحجاز غالبا وفي هذا يقول ابن خلدون وأما مذهب مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس وان كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالبا في الحجاز وهو منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك بن انس وشيوخه من قبله وتلاميذه من بعده فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره ممن لم تصل إليهم طريقته[[17]](#footnote-17).

3-الدافع الديني:

يعتبر الدافع الديني أصل الهجرة في الإسلام ففي الحديث النبوي الشريف "إنما الأعمال بالنيات و إنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرة لله ورسوله فهجرته لله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته لما هجر إليه"، فكانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم هجرة دينية، وقد حدثت في بلاد المغرب هجرة دينية بعد سقوط الأندلس فقد اضطر مسلمي الأندلس من ترك بلادهم والهجرة نحو أقطار المغرب، خاصة وأن الفقهاء سئلوا مجددا عن (السؤال في المرة الأولى كان بعد سقوط صقلية) حكم بقاء المسلم في أرض الكفر وقد أجاب الفقيه الونشريسي عن هذا السؤال في كتاب سماه أسنى المتاجر في أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ،وما قد يترتب عنه من العواقب والزواجر" وقد أفتى في هذا الكتاب بضرورة الهجرة واعتبرها واجبا دينيا إلا على من كان عاجزا عن القيام بها.

آثار الهجرة

سأحاول هنا إعطاء أمثلة عن تأثيرات الهجرة على المجتمع وسأحاول أن تكون هذه الآثار بناء على الدوافع مع أمثلة عن التي ضربناها سلفا.

آثار الهجرة سياسيا:

خلفت الهجرة التي كانت بدافع سياسي عدة أثار نذكر منها تحويل الكثير من المدن من مدن أشباح إلى مدن شهير على غرار ما حدث مع بجاية بعد الانتقال الحمادي، يظاف إلى هذا الاستثمار السياسي في الخبرات المهاجرة ونذكر من ذلك على سبيل المثال استثمار الأمير الزياني في خبر يحي بن خلدون الذي كان حاجبا عند الأمير الحفصي أبو عبد الله في بجاية،وبعد مقتل الأخير وسيطرة أ[و العباس الحغصي على بجاية فر يحي ابن خلدون إلى بسكرة ومنها إلى تلمسان، وبفعل خبرته في إدارة الصراعات الساسية عينه أبو حمو موسى الثاني كاتبا ويقول في ذلك " ثم اصطفاني لكتابة إنشاه ...وأمرني باستقدام ولدي من بسكرة\* محمولين بإحسانه محفوفين ببره وعنايته فكان ذلك أول سعادة أويتها و أعظم عناية ربانية رأيتها".

الأثر الاقتصادي:

خلفت الهجرة عدة أثار اقتصادية نذكر منها:

كانت للعملية التجارية تأثير مباشر على الاقتصاد فبفضلهم يزدهر الاقتصاد وتحدث عملية تطور اقتصادي، كما كانت خزينة الدولة تنتعش جراء قدوم التجار ، فمثلا و لم يكن توافد اليهود على بلاد المغرب من الأمور الشاغلة للبال سواء على المستوى الشعبي أو على المستوى الرسمي ، إذ اعتبر قدومهم مبشرا على المستوى الاقتصادي بفضل ما جلبوه معهم من أموال و من نشاط تجاري ، كما اعتبروا موردا جديدا من موارد الجباية ( الجزية ) .

كما أن البلاد المهاجر إليها استفادة من خبرات المهاجرين في مجال الاقتصاد على غرار ما حدث مع الأندلسيين الذين نقلوا الكثير من الأنشطة الاقتصادية إلى بلاد المغرب ففي الميدان الزراعي مثلا فقد طوروا النمط الفلاحي في الجزائر وذلك بإدخال تقنيات زراعية متطورة، فارتفعت نسبة الأراضي المستصلحة في متيجة، وعنابة، وتلمسان ووهران التي اشتهرت، بإنتاج مختلف أنواع الفواكه، مثل حب الملوك والإجاص، والتفاح والبرتقال، والعنب إلى جانب زراعة الزيتون والخضر والفواكه بمتيجة و زراعة التوت والأرز والقطن في مستغانم ومليانة وعنابة.

وخير منطقة لاقت عناية أكبر في الميدان الزراعي، من طرف مهاجري الأندلس، سهل متيجة وأخص بالذكر فحص مدينة البليدة .

لم يكن الأندلسيون فلاحين فقط، بل كانوا أيضا صناعيين مهرة، فقد برعوا في مختلف المهن فكانوا بحق عمال ورشات مختصة في الخياطة (جلود، حرير، أقمشة)، والنجارة والحدادة، فمازالت صناعة القطيفة والشبيكة النسوية شاهدة على براعة المرأة الأندلسية في الجزائر.

كما ازدهرت صناعة الزرابي، على يدهم في نواحي الغرب الجزائري، وخاصة تلمسان، بل يعود إليهم الفضل في تحسين صناعة الأسلحة، وإعداد البارود، وتطوير صناعة السفن، بمنائي الجزائر وشرشال.

الأثر الاجتماعي:

يعتبر التأثير الاجتماعي أبرز أثار تتركه الهجرة فهذا التأثير يكون ظاهر للعيان وسنحاول هنا إبراز أهم هذه التأثيرات التي كانت على بلاد المغرب فمثلا ساهمت الهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب اجتماعي في تعريب المجتمع المغربي، وكذا الاندماج بين فئات المجتمع فأصبح من الصعوبة بمكان الفصل بين الوافد والمحلي، هذا من جهة ومن جهة أخرى وجراء الاندماج بين الوفد سواء الأندلسي أو العربي امتزجت العادات والتقاليد بين ما هو وافد وما هو محلي وتظهر تلك العادات في الاحتفالات بالأعياد والمناسبات ، وكذا في طرق الزواج وغيرها.

التأثير المجال الثقافي والحضاري:

كانت هناك تأثير واضح للمهاجرين في المجال الحضاري والثقافي، ومن ذلك ما تحدثت عنه المصادر والمراجع حول تأثير اهجرة الهلالية على بلاد المغرب انطلاقا من النظرة الخلونية وتحويل بلاد المغرب إلى خراب عمراني، وإن كانت هذه النظرة وجب التعامل معها بحذر، كما كان للأندلسيين تأثير عمراني واضح في بلاد المغرب من خلال طابع البناء الأندلسي الذي امتزج بالطابع المغربي  منذ القرن الخامس الهجري، واستمرت عملية الامتزاج نحو ثلاثة قرون… فأصبحت تلمسان ببناياتها وحدائقها أشبه بإشبيلية وغرناطة في روائعها الفنية وطبيعتها الفتانة.  
كما برع سكان الأندلس في النقش على الخشب، عبروا عن عبقريتهم هذه في صنع المنابر، تحمل صورا، وزخارف هندسية رائعة في أسلوب مغربي إسباني حمله إلى شمال إفريقيا الفنانون الأندلسيون.

كما أن بلاطات الملوك تزينت بالعلماء والشعراء والأطباء المهاجرين فمثلا البلاط الزياني وجد به الطبيب موسى بن سمويل بن يهودا الإسرائيلي الذي يقول عنه عبد الباسط خليل " ولازمت في الطب الرئيس الفاضل الماهر الأدربيّ الأقدريّ ، موسى بن سمويل بن يهودا الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي المتطبب المعروف بأبيه هداه الله تعالى للإسلام لم أسمع بذمي ولا رأيت كمثله في مهارته في العلم وفي علم الوفْق والميقات وبعض العلوم القديمة ، أخذ عن أبيه وغيره ومهر في صناعة الطب، وانتقل إلى تلمسان فقطنها وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه ، لازمتُه مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب وغيره وأجازني ، وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان، وهو مقرب ومختص بصاحبها من غير أن يُداخله فيما يتعلق بالمملكة لعقله ورأيه، أسأل الله تعالى أن يُمِتْه على ملّة النبي صلى الله عليه وسلم"

فكان السلطان المريني أبو الحسن محبا للعلماء مغدقا عليهم يحرص على استجلابهم من سائر البلاد " فإذا سمع بمن له رسوخ في العلم أقدمه لمجالسته ومحاضرته ومشاورته ومشاركته فيما يتقلد من الأمور الشرعية.

ومن الشعراء الذين نالوا مكانة مرموقة بعد هجرتهم نذكر على سبيل المثال الشاعر الأندلسي ابن هانئ الذي نال الحظوة والتقريب من الفاطميين فبعد خروجه من إشبيلية بسبب عدم رضا الأمويين على أمير اشبيلية تقريب أبن هانئ فخرج إلى بلاد المغرب وقد قدمه المعز للدين الله الفاطمي أي تقريب.

1. أحمد الشرقاوي إقبال: معجم المعاجم المؤلف دار الغرب الإسلامي; 1993 ط 2، ص321 [↑](#footnote-ref-1)
2. أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين; معجم مقاييس اللغة تح عبد السلام محمد هارون ، مج 6، ص124. [↑](#footnote-ref-2)
3. محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور تهذيب اللغة المؤلف تح محمد عوض مرعب دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى، 2001م ج 5، ص245. [↑](#footnote-ref-3)
4. احمد كمال وآخرون ، دراسات في علم الاجتماع ، ج2 ، دار الجيل ، القاهرة 1974 ، ص165. [↑](#footnote-ref-4)
5. [أحمد بن علي بن حجر العسقلاني](http://library.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?flag=1&bk_no=52&ID=17): فتح الباري شرح صحيح البخاري،دارالريان للتراث 1407هـ / 1986م ،ج9،ص325. [↑](#footnote-ref-5)
6. محمد بنعباد : المهاجر من هجر ما نهى الله ، مقال في مجلة دعوة الحق، العدد328، محرم1428، ماي 1997،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية. [↑](#footnote-ref-6)
7. ابن حجر :المصدر السابق،ص22. [↑](#footnote-ref-7)
8. سورة الحشر الأية8 [↑](#footnote-ref-8)
9. ### محمد الحسن الدادو: [ما معنى الهجرة ومتى تجب على المسلم](https://ar.islamway.net/fatwa/13686/%D9%85%D8%A7-%D9%85%D8%B9%D9%86%D9%89-%D8%A7%D9%84%D9%87%D8%AC%D8%B1%D8%A9-%D9%88%D9%85%D8%AA%D9%89-%D8%AA%D8%AC%D8%A8-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D9%84%D9%85)

   [↑](#footnote-ref-9)
10. نفسه [↑](#footnote-ref-10)
11. سورة الأنعام الآية68 [↑](#footnote-ref-11)
12. سورة النساء140 [↑](#footnote-ref-12)
13. عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من من التاريخ الجزائري، ط2، دار الصحوة، القاهرة،1992،ص121. [↑](#footnote-ref-13)
14. ابن خلدون : كتـاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيـام العرب والعجم والبربر و من عـاصرهم من ذوي السلطـان الأكبر ، دار الكتب العلمية ، ط1، بيروت ، 1992، مج1 ، ص422 [↑](#footnote-ref-14)
15. القـادري بوتشيش : تـاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضـايـا المجتمع والحضـارة ، دار الطليعة للطبـاعة والنشر ، ط1 ، بيروت ، 1994 ، ص 95 . [↑](#footnote-ref-15)
16. أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ،تح علي عمر ج2 ،،ط1 ،مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة ، 2004 ص68. [↑](#footnote-ref-16)
17. ابن خلدون: المقدمة، المطبعة البهية المصرية، ص192. [↑](#footnote-ref-17)